

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، جدا كثيرا علينا ما كنا فيه ، والصلوة والسلام على أشرف الخلق، سيدنا محمد ، النبي الأمي ، وعلى آله وأصحابه وأرسله أمته الزميين ، الطيبين الطاهرين ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

ويطرح

فالقرآن الكريم هو كلام الله - عز وجل - فمعجز ، المنقول على لسان نبي صلى الله عليه وسلم - المنقول إلينا بالنوار ، المكتوب في المصاحف ، من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس ، ليخرج الله به الناس من الضلال إلى الهدى ، كما قال تعالى : (...) كتاب أنزلناه عليك بالحق ، لعلك تتقون .

كتاب اللطيف الخبير

للحبيب في القرآن الكريم

”دراسة موضوعية“

دكتور

عوض محمد يوسف أبو عليان

الأستاذ المساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن الكريم

(١) من الآية الأولى ، كلية أصول الدين / جامعة الأزهر / القاهرة

(٢) الأيتان : ١٤٧ ، من سورة قلمت

(٣) الآية : ٩ ، من سورة الحجر

(٤) الآية : ٩ ، من سورة الإسراء

فبسم الله الرحمن الرحيم ، والصلوة والسلام على أشرف الخلق ، سيدنا محمد ، النبي الأمي ، وعلى آله وأصحابه وأرسله أمته الزميين ، الطيبين الطاهرين ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

والله أعلم بالصواب ، والحمد لله رب العالمين ، والصلوة والسلام على أشرف الخلق ، سيدنا محمد ، النبي الأمي ، وعلى آله وأصحابه وأرسله أمته الزميين ، الطيبين الطاهرين ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

١ - تفسير القرآن الكريم ، محمد رشيد رضا ، دار الفکر ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ١٢٥٨ .

٢ - تفسير القرآن العظيم ، محمد رشيد رضا ، دار الفکر ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ١٢٥٨ .

٣ - تفسير القرآن العظيم ، محمد رشيد رضا ، دار الفکر ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ١٢٥٨ .

٤ - تفسير القرآن العظيم ، محمد رشيد رضا ، دار الفکر ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ١٢٥٨ .

٥ - تفسير القرآن العظيم ، محمد رشيد رضا ، دار الفکر ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ١٢٥٨ .

٦ - تفسير القرآن العظيم ، محمد رشيد رضا ، دار الفکر ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ١٢٥٨ .

٧ - تفسير القرآن العظيم ، محمد رشيد رضا ، دار الفکر ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ١٢٥٨ .

٨ - تفسير القرآن العظيم ، محمد رشيد رضا ، دار الفکر ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ١٢٥٨ .

٩ - تفسير القرآن العظيم ، محمد رشيد رضا ، دار الفکر ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ١٢٥٨ .

١٠ - تفسير القرآن العظيم ، محمد رشيد رضا ، دار الفکر ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ١٢٥٨ .

١١ - تفسير القرآن العظيم ، محمد رشيد رضا ، دار الفکر ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ١٢٥٨ .

١٢ - تفسير القرآن العظيم ، محمد رشيد رضا ، دار الفکر ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ١٢٥٨ .

١٣ - تفسير القرآن العظيم ، محمد رشيد رضا ، دار الفکر ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ١٢٥٨ .

١٤ - تفسير القرآن العظيم ، محمد رشيد رضا ، دار الفکر ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ١٢٥٨ .

١٥ - تفسير القرآن العظيم ، محمد رشيد رضا ، دار الفکر ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ١٢٥٨ .

١٦ - تفسير القرآن العظيم ، محمد رشيد رضا ، دار الفکر ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ١٢٥٨ .

١٧ - تفسير القرآن العظيم ، محمد رشيد رضا ، دار الفکر ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ١٢٥٨ .

١٨ - تفسير القرآن العظيم ، محمد رشيد رضا ، دار الفکر ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ١٢٥٨ .

١٩ - تفسير القرآن العظيم ، محمد رشيد رضا ، دار الفکر ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ١٢٥٨ .

٢٠ - تفسير القرآن العظيم ، محمد رشيد رضا ، دار الفکر ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ١٢٥٨ .

٢١ - تفسير القرآن العظيم ، محمد رشيد رضا ، دار الفکر ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ١٢٥٨ .

٢٢ - تفسير القرآن العظيم ، محمد رشيد رضا ، دار الفکر ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ١٢٥٨ .

٢٣ - تفسير القرآن العظيم ، محمد رشيد رضا ، دار الفکر ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ١٢٥٨ .

٢٤ - تفسير القرآن العظيم ، محمد رشيد رضا ، دار الفکر ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ١٢٥٨ .

٢٥ - تفسير القرآن العظيم ، محمد رشيد رضا ، دار الفکر ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ١٢٥٨ .

٢٦ - تفسير القرآن العظيم ، محمد رشيد رضا ، دار الفکر ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ١٢٥٨ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، والصلاة والسلام على أشرف الخلق، سيدنا محمد ، النبي الأمي ، وعلى آله وأصحابه وأزواجه أمهات المؤمنين، الطيبين الطاهرين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

ويعد:-

فالقرآن الكريم هو كلام الله- عز وجل- المعجز، المنزل على النبي- صلى الله عليه وسلم- المنقول إلينا بالتواتر، المكتوب في المصاحف، من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس؛ ليخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿...كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾. (١)

وقد وصفه منزله بقوله- سبحانه-: ﴿... وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾. (٢)

حقا، إن آيات القرآن الكريم في غاية الدقة والإحكام، والوضوح والبيان، أحكمها حكيم، وفصلها خبير، وسيظل هذا الكتاب معجزا من الناحية البلاغية والتشريعية والعلمية والتاريخية، وغيرها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لم يتطرق إليه أدنى شيء من التحريف؛ تحقيقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. (٣)

فالدنيا كلها لم تظفر بكتاب أجمع للخير كله، وأهدى للتي هي أقوم، وأوفى بما يُسعد الإنسانية، من هذا القرآن المجيد، الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾. (٤)

(١) من الآية الأولى، من سورة إبراهيم- عليه السلام-.

(٢) الأيتان: ٤١ و٤٢، من سورة فصلت.

(٣) الآية: ٩، من سورة الحجر

(٤) الآية: ٩، من سورة الإسراء.

وهذا الكتاب المجيد، قد فتح الله به أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا، وضمن للمسلمين الأمن والسعادة في دنياهم وأخراهم، إذا هم تَلَّوْهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ، وتفهموا سورته وآياته، وتفقهوا جملة وكلماته، ووقفوا عند حدوده وأتَمَرُوا بأوامره، وانتهوا بنواهيته، وتخلقوا بما شرع، وطبقوا مبادئه ومثله وقيمه على أنفسهم وأهليهم ومجتمعاتهم.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ...﴾ (١)

قال ابن عباس: "يَتَّبِعُونَهُ حَقَّ اتِّبَاعِهِ، يَحْلُونَ حِلَالَهُ وَيَحْرَمُونَ حَرَامَهُ، وَلَا يَحْرَفُونَهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ".

نعم: لقد تأثر به الجن ساعة سمعوه، وامتألت قلوبهم بمحبته وتقديره، وأسرعوا لدعوة قومهم إلى اتباعه فقالوا- كما يقص علينا القرآن الكريم ﴿...إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا * وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ (٢)

كما قص الله علينا في قرآنه الحكيم عنهم أنهم قالوا: ﴿... يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣)

من أجل ذلك كله فاق هذا الكتاب المبارك كل ما تقدمه من الكتب السماوية، وكانت منزلته فوق منزلتها، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ...﴾ (٤)

وهذا البحث المتواضع الذي أقدمه إلى حولية كلية أصول الدين بالقاهرة تحت عنوان: "عتاب اللطيف الخبير للحبيب- صلى الله عليه وسلم- في القرآن الكريم" دراسة موضوعية، ما هو إلا محاولة مني، للإسهام من خلاله، مع أساتذتي الأجلاء، وزملائي الأعراف في إثراء مجلتي الغراء.

(١) من الآية: ١٢١، من سورة البقرة.

(٢) من الآيات: ١-٣، من سورة الجن.

(٣) من الآيات: ٣٠-٣١، من سورة الأحقاف.

(٤) من الآية: ٤٨، من سورة المائدة.

وقد حاولت من خلال هذا البحث- قدر استطاعتي-، إلقاء الضوء على الآيات القرآنية الكريمة والتي فيها إشارة عتاب من الله- عز وجل- إلى رسوله وحبيبه ومصطفاه محمد- صلوات الله وسلامه عليه- والسبب الذي من أجله عوتب - صلى الله عليه وسلم- بمثل هذا العتاب ، ودلالة ذلك في القرآن الكريم ، وهل وجود مثل هذه الآيات الكريمات في القرآن الكريم، يقدر في عصمته- صلى الله عليه وسلم - ؟

وقد قمت بتقسيم هذه الدراسة إلى محثين:-

المبحث الأول: في تعريف العتاب، وتحتة مطالب:-

المطلب الأول: في تعريف العتاب لغة واصطلاحاً.

والمطلب الثاني: في أنواع العتاب الموجه إلى النبي- صلى الله عليه وسلم-.

والمطلب الثالث: في النصوص الدالة عليه، ودلالة ذلك في القرآن الكريم.

والمبحث الثاني: في عتاب الله- عز وجل- لنبيه- صلى الله عليه وسلم- في القرآن

الكريم، وقسمت هذا المبحث إلى: تمهيد ، وأربعة مطالب. ففي التمهيد، تحدثت عن

عصمة الرسول- صلى الله عليه وسلم- وموقف القرآن الكريم منها.

وفي المطلب الأول: عتابه ﷺ على أخذ الفدية من أسرى بدر.

والمطلب الثاني: عتابه ﷺ على الإذن الصادر منه للمنافقين.

والمطلب الثالث: عتابه ﷺ على تحريم ما أحل الله له.

والمطلب الرابع: عتابه ﷺ على إعراضه عن ابن أم مكتوم.

اسأل الله العلي القدير، أن يلهمنا الصواب والرشاد، وأن يبصرنا بعيوبنا، وأن يزيننا

بزينة الإيمان.

﴿...رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ (١).

دكتور

عوض محمد يوسف أبو عليان

الأستاذ المساعد في قسم التفسير وعلوم القرآن الكريم

كلية أصول الدين/جامعة الأزهر/ القاهرة

(١) من الآية: ٢٥- ٢٨، من سورة طه، وهذا الدعاء، من دعاء نبي الله موسى- عليه السلام-.

المبحث الأول

في تعريف العتاب

المطلب الأول: في تعريف العتاب لغة واصطلاحاً.

أولاً: تعريفه في اللغة:-

عتب: (العين والتاء والباء) أصلٌ صحيح، يرجع كله إلى الأمر فيه بعضُ الصُعوبة من كلامٍ أو غيره. من ذلك العتبة، وهي أسكفة الباب، وإنما سميت بذلك لارتفاعها عن المكان المطمئن السهل، وعتبات الدُرْجَة: (مراقبيها)، كلُّ مرَاقَة من الدُرْجَة عتبة، ويشبه بذلك العتباتُ تكون في الجبال، والواحدة عتبة، وتجمع أيضاً على عتَب؛ وكلُّ شيء جَساً وجفا فهو يشتقُّ له هذا اللفظ: يقال فيه عتَبَ إذا اعتراه ما يغيّره عن الخُلوص. (١)

ويقول صاحب اللسان: (٢) "عاتبه معاتبته وعتابا كل ذلك لأمه.

قال الشاعر:-

أعاتب ذا المودة من صديق

إذا ما راينى منه اجتناب

إذا ذهب العتاب فليس ود

ويبقى الود ما بقي العتاب

قال الأزهري (٣): لم أسمع العتب والعتبان والعتاب بمعنى الإعتاب إنما العتب و العتبان لومك الرجل على إساءة كانت له إليك فاستعتبتته منها وكل واحد من اللفظين

(١) انظر: مقاييس اللغة باب العين والتاء.

(٢) (ابن منظور: ٥٧٧/١)، والقاموس المحيط فصل العين.

(٣) الأزهري: هو صاحب التهذيب في اللغة وابن أخت أبي عوانة وشيخ الخطيب - رحمه الله - (انظر لب الألباب في تحرير الأنساب) رقم الترجمة: ١٢٤.

يخلص للعتاب فإذا اشتركا في ذلك وذكر كل واحد منهما صاحبه ما فرط منه إليه من الإساءة فهو العتاب والمعاتبة.

فأما الإعتاب و العتبي فهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب ، والاستعتاب: طلبك إلى المسيء الرجوع عن إساءته ، والتعتب و التعتاب والمعاتبة: توصف الموجدة.

قال الأزهري التعتب و المعاتبة والعتاب كل ذلك: مخاطبة الإدلال وكلام المدلين أخلاءهم طالبين حس مراجعتهم ومذاكرة بعضهم بعضاً ما كرهوه مما كسبهم الموجدة. و العتب: الرجل الذي يعاتب صاحبه أو صديقه في كل شيء إشفافاً عليه ونصيحة له.

ثانياً: تعريفه في الاصطلاح:-

العتاب: هو مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموجدة. (١)

المطلب الثاني: أنواع العتاب الموجه إلى النبي ﷺ.

العتاب الموجه إلى النبي ﷺ يقع على نوعين:-

النوع الأول: نوع لطيف لين.

والنوع الثاني: نوع عنيف شديد.

ولنمثل لها بأمثلة ثلاثة:- (٢)

المثال الأول:-

قوله تعالى في سورة التوبة: (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ) (٣).

وذلك أنه - عليه السلام - كان قد أذن لبعض المنافقين في التخلف عن غزوة تبوك، حين جاءوا يستأذنون ويعتذرون، فقبل منهم تلك الأعذار أخذاً بظواهرهم، ودفعاً لأن يقال: إنه لا يقبل العذر من أصحاب الأعذار، ولكن الله - تعالى - عاتبه - كما ترى -

(١) انظر: (التعاريف: ٥٠١/١)، (و مختار الصحاح: ١٧٣/١).

(٢) انظر: (مناهل العرفان للشيخ الزرقاني: ٢/ ٢٨٥ و ٢٨٦).

(٣) الآية: ٤٣، من السورة الكريمة.

وأمره بكمال التثبيت والتحري، وألا يندفع بتلك الظواهر، فإن من وارثها أسفل المقاصد، والله أعلم بما يبيتون، ولعله لم يخف عليك لطف هذا العتاب بتصدير العفو فيه، خطابا للرسول من رب الأرباب.

المثال الثاني:-

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١).

وذلك أنه وقع في أسر المسلمين يوم بدر سبعون من أشرف قريش، فاستشار الرسول أصحابه فيهم فمنهم من اشتد وأبى عليهم إلا السيف، ومنهم من رق لحالهم، وأشار بقبول الفداء منهم، وكان الرسول مطبوعا على الرحمة، ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما، فرجح بمقتضى طبعه الكريم، ورحمته الواسعة، رأى من أشار بقبول الفداء، عسى أن يسلموا أو يخرج الله من أصلابهم من يعبده ويمجده، ولينتفع المسلمون بمال الفدية في شؤونهم الخاصة والعامة، ولكن ما لبث حتى نزلت الآيات الكريمة المذكورة، وفيها تسجيل لخطأ ذلك الاجتهاد المحمدي، فلو كان القرآن كلامه، ما سجل على نفسه ذلك الخطأ. أمر آخر في هذه الآيات ظاهرة عجيبية هي الجمع بين متقابلين لا تجتمع في نفس بشر على هذا الوجه فصدرها استنكار للفعل ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ﴾

وعقب هذا الاستنكار عتاب قاس مر، وتخويف من العذاب ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

وفي أثر هذا الاستنكار والعتاب والتخويف، إذن بالأكل، ووصف له بالطيب والحل، وبشارة بالمغفرة والرحمة، لمن أكل: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

(١) الآيات: ٦٧-٦٩، من سورة الأنفال.

(٢)

(٣)

(٤)

ومثلك يعلم: أن نظم هذه المتقابلين في سلك واحد بهذه الصورة لأمر واحد ومأمور واحد، لا يمكن أن يصدر من نفس بشرية هكذا من غير فاصل بين الإنكار والإذن، ولا بين المدح والذم، ولا بين الوعيد والوعد، لأن من طبيعة البشر، أن يشغلهم شأن عن شأن ولا يجتمع لهم في أمر واحد، ووقت واحد، خاطران متقابلان، ولا حالان متنافيان، كالغضب والرضا، والاستهجان والاستحسان، بل إذا تواردا على النفس، فإنما يراد متعاقبين في زمنيين، وإذا تعاقب فاللاحق منهما يمحو السابق، وإذا محاه لم يبق معنى لإثباته وتسجيله، بل من الطبيعي تركه والإضراب عنه، خصوصا إذا كان هذا الخاطر الأول، وإعلانا لتخطئة المتكلم، ونقده ولومه، كقبول الفداء في هذا المقام، وأكله فلا جرم أن هذه الظاهرة تأتي هي الأخرى إلا أن تكون دليل إعجاز وبرهان صدق على أن هنا نفسيتين مختلفتين، نفسية لا يشغلها شأن ولا تتأثر ببواعث الغضب والرضا، كما يتأثر الإنسان ونفسية نسبتها إلى الأخرى، نسبة المأمور من أمره، والمسود من سيده ولكن مع الحب والقرب. فهذه الآيات الكريمة ليست إلا كلام سيد عزيز، يقول لعبده الحبيب أخطأت فيما مضى، وما كان لك أن تفعل، ولكنني عفوت وغفرت وأذنت لك بمثله في المستقبل.

المثال الثالث:-

قوله عز وجل:- ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ * وَمَا يُذْرِكْ لَعَلَّهُ يَรْكَىٰ * أَوْ يَسْتَفْزِرُ فَنَقَعَهُ الدُّكْرَىٰ * أَمْ مَن اسْتَفْعَىٰ * فَأَن تَ لَهُ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَىٰ * وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ * فَأَن تَ عَنْهُ تَلَهَىٰ * كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ (١).

وذلك أن النبي كان مشغولا ذات يوم بدعوة أشرف من قريش إلى الإسلام، وإذا عبد الله بن أم مكتوم، يجيء ويسأل الرسول، وكان عبد الله رجلا أعمى، تشرف بهداية الإسلام من قبل، ولم يقدر تشاغله بدعاية هؤلاء الصناديد الذين كان النبي حريصا على هدايتهم كل الحرص، وكان يستلمهم ويتألفهم إليه طمعا في أن يسلموا، فلا يثبت جماهير العرب أن تقتدي بهم في إسلامهم، وفي أي شيء جاء هذا الصحابي يسأل أنه

(١) الآيات الكريمة، من سورة عبس.

مسلم، فطبيعي انه لم يسأله عن الإسلام، بل جاء يستزيده من الهداية والعلم، ويقول: "يا رسول الله، علمني مما علمك الله"

وجد الرسول نفسه بين قوم غلاظ مشركين يدعوهم إلى الإسلام ورجل وديع مسلم يستزيده من العلم، فأثر الإقبال على أولئك الصناديد، وعبس في وجه ابن أم مكتوم هذا، وأعرض عنه، لا احتقارا له وغضا من شأنه، ولكن حرصا على هداية هؤلاء، خوفا من أن تفوت هذه الفرصة السانحة لدعوتهم، فأنزل الله على رسوله تلك الآيات السالفة يعاتبه فيها ذلك العتاب القاسي الشديد ويفهمه أن حرصه على الهداية، ما كان ينبغي أن يصل به إلى حد الإقبال الشديد على هؤلاء الصناديد، وهم عنه معرضون، ولا إلى حد الإعراض العابس في وجه هذا الضعيف الأعمى، وهو عليه مقبل، وكأني بك تحس حرارة هذا العتاب، وذلك لتقرير مبدأ من المبادئ العالية، هو الإعراض عن المعرضين، مهما عظم شأنهم والإقبال على المقبلين، مهما رق حالهم: ولعلك تلمح معي من وراء هذا العتاب رحمة الرسول بأعدائه وإخلاصه لدعوته وتقانيه في وظيفته وحرصه على هداية الناس أجمعين^(١).

وسوف نستعرض هذه النصوص بالشرح والتحليل في المبحث الثاني - إن شاء الله تعالى - والمتتبع لمواقف العتاب للرسول - صلى الله عليه وسلم - يجده عتاباً لصالحه - صلى الله عليه وسلم - رحمة به، وشفقة عليه، لا كما يقول البعض: إن الله تعالى يصحح للرسول خطأ وقع فيه ومثال لهذا قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُذْرِيكَ لَعَلَّه يُزَكَّى﴾ (سورة عبس)^(٢)

ولم يضر النبي - صلى الله عليه وسلم - عتاب الله له في أكثر من موضع في القرآن، فلم يكن عتاب الله لنبيه قادحاً في شخص النبي - صلى الله عليه وسلم - ، ولا عيباً يعاب به الإسلام أن يعاتب الله نبيه أبداً ، إنما ذلك العتاب جاء رفعة للنبي - صلى الله عليه وسلم - وتزكية له ، وتجريداً للحق من شوائب الطبائع البشرية ، وشاهد ذلك قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ

(١) (انظر: مناهل العرفان: ٢/ ٢٨٧)

(٢) (انظر: خواطر فضيلة الشيخ الشعراوي - رحمه الله - في تفسير الآية رقم: ٥٤ من سورة الإسراء.

غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١) ، وقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُذْرِيكَ لَعَلَّه يُزَكَّى...﴾ ، وقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ الآية ، وقوله: ﴿وَتَخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ ، وغيرها من الآيات كثير ، التي أنزلها الله عتاباً لرسوله ﷺ على بعض أعماله وهي تتلى إلى يوم القيامة ، وكان الله قادراً على أن يكون العتاب بينه وبين نبيه ﷺ ولا يطلع عليه أحداً من الناس ، ولكن لما اقتضى توضيح المحجة مثل ذلك العتاب ، كان العتاب ولكن بألطف أسلوب وأحسن بيان.

المطلب الثالث:

النصوص الدالة على عتاب الله - عز وجل - لرسوله ﷺ

ودلالة ذلك في القرآن الكريم.

ذكر صاحب البرهان^(٢) أن الله - عز وجل - عاتب رسوله ﷺ في خمسة مواضع من كتابه:-

الموضع الأول:- في سورة الأنفال.

والموضع الثاني:- في سورة براءة.

والموضع الثالث:- في سورة الأحزاب.

والموضع الرابع:- في سورة التحريم.

والموضع الخامس:- في عبس، خلافاً للشيخ عز الدين بن عبد السلام^(٣)، حيث جعل

العتب من أدلة النهي.

(١) الآية رقم ١ من سورة التحريم.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ٢/ ١٤ و ١٣، و روح المعاني ج: ١٠ ص: ١٠٩، و بدائع الفوائد لابن القيم، تحت عنوان: (فائدة معاتبه الله لنبيه) ٣١٨/٤.

(٣) هو عبد العزيز بن عبد السلام بن الحسن المسلمي الدمشقي، أبو محمد، شيخ الإسلام عز الدين المعروف بالعز بن عبد السلام، الملقب بسلطان العلماء، توفي في مصر ودفن بسفح المقطم عن

عمر نيف على الثمانين. من تصانيفه: (التفسير الكبير) و (شجرة المعارف) و (الإمام في أدلة الأحكام) و (قواعد الأحكام في إصلاح الأئام) وغير ذلك. انظر: الأعلام: ٤/ ١٤٤، والنجوم

الزاهرة: ٧/ ٢٠٨، و شذرات الذهب: ٥/ ٣٠١.

وادعى بعض العلماء أن آيات العتاب تتحصر في موضعين:

الموضع الأول: في قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَبْتَ لَهُمْ...﴾.

والموضع الثاني: أخذه - صلى الله عليه وسلم - الفداء من الأسرى. (١)

وهذا - طبعا - غير صحيح، فإن لهما ثالثا، وهو المذكور في سورة التحريم، وغير ذلك، كالمذكور في سورة عبس، ولذا فإنني سأقتصر - في هذه الدراسة، على هذه المواضع الأربعة - إن شاء الله تعالى -

ومعنى هذا: - كما يقول الشيخ الزرقاني في مناهله (٢) " أن القرآن سجل في كثير من آياته بعض أخطاء في الرأي على الرسول ووجه إليه بسببها عتابا تشعر بلطفه تارة وبعنفه أخرى.

ولا ريب أن العقل المنصف يحكم جازما بأن هذا القرآن كلام الله وحده ولو كان كلام محمد ما سجل على نفسه هذه الأخطاء

وهذا العتاب يتلوها الناس بل ويتقربون إلى الله بتلاوتها حتى يوم المآب".

وبالإضافة إلى ذلك: فإن المعاتبة لا تكون إلا من محب لحبيبه، كما قال الشاعر:

أعاتب ذا المودة من صديق

إذا ما رابني منه اجتناب

إذا ذهب العتاب فليس ود

ويبقى الود ما بقي العتاب (٣)

وأقول: إن وجود مثل هذه الآيات الكريمات في القرآن الكريم، يدل دلالة واضحة على

أن هذا القرآن الكريم، هو من عند الله - عز وجل - وليس كما يزعم الزاعمون ومن في قلبه مرض: أنه من عند محمد ﷺ:

﴿...كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ (٤)

(١) روح المعاني ج: ١٠ ص: ١٠٩

(٢) (٢٨٢/٢) تحت عنوان: الوجه الثامن: آيات العتاب

(٣) (أنظر: الجامع لأحكام القرآن للكريم: ١٨/٥٤).

(٤) من الآية ٥٥، من سورة الكهف.

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (١).

ويجدر بنا في هذا المقام، أن ننبه إلى أن هذا الخطأ من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليس بمعصية حتى يقدر ذلك في عصمته - صلى الله عليه وسلم - بل هو من نوع الخطأ الذي يستحق صاحبه أجرا، لأنه صادر عن اجتهاد منه - صلى الله عليه وسلم -

المبحث الثاني:

عتاب الله - عز وجل - لرسوله ﷺ في القرآن الكريم

تمهيد: في عصمة الرسول ﷺ .

يجدر بنا قبل أن ندخل في دراسة وتحليل هذا المبحث، أن نتحدث عن عصمة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وموقف القرآن الكريم منها، باعتبار أن الحديث عن هذا الموضوع يُعد مدخلا لموضوعنا الرئيسي، فنقول ومن الله - تعالى - نستمد منه العون والتوفيق:-

هناك من لا يعترفون بأن الرسول معصوم عن الخطأ، ويقدمون الأدلة على ذلك بسورة [عبس وتولى...] وكذلك عندما جامل الرسول ﷺ، زوجاته، ونزلت الآية الكريمة التي تنهى عن ذلك. وللرد على الشبهة نقول: (٢)

"إن عصمة الرسول ﷺ وكذلك عصمة كل الرسل - عليهم السلام - يجب أن تُفهم في نطاق مكانة الرسول.. ومهمة الرسالة.. فالرسول: بشر يُوحى إليه.. أي أنه - مع بشريته - له خصوصية الاتصال بالسماء، بواسطة الوحي.. ولذلك فإن هذه المهمة تقتضي صفات يصنعها الله على عينه فيمن يصطفيه، كي تكون هناك مناسبة بين هذه الصفات وبين هذه المكانة والمهام الخاصة الموكولة إلى صاحبها. والرسول مكلف

(١) الآية: ٨٢، من سورة النساء.

(٢) أنظر: حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين. حقائق حول الرسول - صلى الله عليه وسلم - الحقيقة رقم (٤٧). (وزارة الأوقاف/ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية).

بتبليغ الرسالة ، والدعوة إليها ، والجهاد في سبيل إقامتها وتطبيقها.. وله على الناس طاعة هي طاعة الله - سبحانه وتعالى - ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ (١)
 ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ (٢)
 ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (٣)
 ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (٤) ولذلك كانت عصمة الرسل فيما يبلغونه عن الله ضرورة من ضرورات صدقهم والثقة في هذا البلاغ الإلهي الذي اختيروا ليقوموا به بين الناس.. وبداهة العقل - فضلاً عن النقل - تحكم بأن مُرْسِل الرسالة إذا لم يتخير الرسول الذي يضيء الصدق على رسالته ، كان عابثاً.. وهو ما يستحيل على الله، الذي يصطفى من الناس رسلاً تؤهلهم العصمة لإضفاء الثقة والصدق على البلاغ الإلهي.. والحجة على الناس بصدق هذا الذي يبلغون.

وفى التعبير عن إجماع الأمة على ضرورة العصمة للرسول فيما يبلغ عن الله ، يقول الإمام محمد عبده عن عصمة الرسل - كل الرسل -: " .. ومن لوازم ذلك بالضرورة: وجوب الاعتقاد بعلو فطرتهم ، وصحة عقولهم ، وصدقهم في أقوالهم ، وأمانتهم في تبليغ ما عهد إليهم أن يبلغوه ، وعصمتهم من كل ما يشوه السيرة البشرية، وسلامة أبدانهم مما تنبو عنه الأبصار وتنفر منه الأنواق السليمة ، وأنهم منزهون عما يضاد شيئاً من هذه الصفات ، وأن أرواحهم ممدودة من الجلال الإلهي بما لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليها سطوة روحانية.. إن من حكمة الصانع الحكيم - الذي أقام الإنسان على قاعدة الإرشاد والتعليم - أن يجعل من مراتب الأنفس البشرية مرتبة يُعد لها ، بمحض فضله ، بعض من يصطفيه من خلقه ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، يميزهم بالفطرة السليمة ، ويبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه للاستشراق بأنوار علمه ، والأمانة على مكنون سره ، مما لو انكشف لغيرهم انكشافه لهم لغاضت له نفسه ، أو ذهبت بعقله جلالته وعظمته ، فيسرفون على الغيب

(١) النساء: ٥٩.

(٢) آل عمران: ٣٢.

(٣) النساء: ٨٠.

(٤) آل عمران: ٣١.

بإذنه ، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه ، ويكونون في مراتبهم العلوية على نسبة من العالمين ، نهاية الشاهد وبداية الغائب ، فهم في الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها ، هم وقد الآخرة في لباس من ليس من سكانها.. أما فيما عدا ذلك- [أي الاتصال بالسماء والتبليغ عنها] - فهم بشر يعترهم ما يعترى سائر أفرادهم ، يأكلون ويشربون وينامون ويسهون وينسون فيما لا علاقة له بتبليغ الأحكام ، ويمرضون وتمتد إليهم أيدي الظلمة ، وينالهم الاضطهاد ، وقد يقتلون (١)
 فالعصمة - كالمعجزة - ضرورة من ضرورات صدق الرسالة ، ومن مقتضيات حكمة من أرسل الرسل - عليهم السلام - وإذا كان الرسول - كبشر - يجوز على جسده ما يجوز على أجساد البشر.. وإذا كان الرسول كمجتهد قد كان يمارس الاجتهاد والشورى وإعمال العقل والفكر والاختيار بين البدائل في مناطق وميادين الاجتهاد التي لم ينزل فيها وحي إلهي.. فإنه معصوم في مناطق وميادين التبليغ عن الله - سبحانه وتعالى - لأنه لو جاز عليه الخطأ أو السهو أو مجانبة الحق والصواب أو اختيار غير الأولى في مناطق وميادين التبليغ عن الله لتطرق الشك إلى صلب الرسالة والوحي والبلاغ ، بل وإلى حكمة من اصطفاه وأرسله ليكون حجة على الناس.. كذلك كانت العصمة صفة أصيلة وشرطاً ضرورياً من شروط رسالة جميع الرسل - عليهم السلام.. فالرسول في هذا النطاق - نطاق التبليغ عن الله - (وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى) (٢). وبلاغة ما هو بقول بشر ، ولذلك كانت طاعته فيه طاعة لله ، وبغير العصمة لا يتأتى له هذا المقام.

أما اجتهادات الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما لا وحي فيه ، والتي هي ثمرة لإعماله لعقله وقدراته وملكاته البشرية ، فلقد كانت تصادف الصواب والأولى ، كما كان يجوز عليها غير ذلك. ومن هنا رأينا كيف كان الصحابة - رضوان الله عليهم - في كثير من المواطن وبازاء كثير من مواقف وقرارات وآراء واجتهادات الرسول -

(١) أنظر: حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، نقلاً من كتاب: الأعمال الكاملة للإمام محمد

عبده ج ٢ ص ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤٢٠ ، ٤٢١. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة

١٩٩٣ م.

(٢) النساء: ٨٠.

(٣) آل عمران: ٣١.

(٤) النجم: ٣-٤.

﴿يسألونه - قبل الإلقاء بمساهماتهم في الرأي - هذا السؤال الذي شاع في السنة والمسيرة: يا رسول الله ، أهو الوحي ؟ أم الرأي والمشورة ؟..﴾^(١).

فإن قال: إنه الوحي. كان منهم السمع والطاعة له ، لأن طاعته هنا هي طاعة الله.. وهم يسلمون الوجه لله حتى ولو خفيت الحكمة من هذا الأمر عن عقولهم ، لأن علم الله - مصدر الوحي - مطلق وكلي ومحيط، بينما علمهم نسبي ، قد تخفى عليه الحكمة التي لا يعلمها إلا الله.. أما إن قال لهم الرسول - جوابا عن سؤالهم -: إنه الرأي والمشورة.. فإنهم يجتهدون ، ويشيرون ، ويصوبون.. لأنه- صلى الله عليه وسلم- هنا ليس معصوماً ، وإنما هو واحد من المقدمين في الشورى والاجتهاد.. ووقائع نزوله عن اجتهاده إلى اجتهادات الصحابة كثيرة ومتناثرة في كتب السنة ومصادر السيرة النبوية - في مكان القتال يوم غزوة بدر.. وفي الموقف من أسراها.. وفي مكان القتال يوم موقعة أحد.. وفي مصالحة بعض الأحزاب يوم الخندق... الخ.

ولأن الرسول- صلى الله عليه وسلم- قد أراد الله له أن يكون القدوة والأسوة للأمة (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً)^(٢)

وحتى لا يقتدي الناس باجتهاد نبوي لم يصادف الأولى ، كان نزول الوحي لتصويب اجتهاداته التي لم تصادف الأولى ، بل وعتابه - أحياناً - على بعض هذه الاجتهادات والاختيارات من مثل: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهٗ يَرْكَبُ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنْ اسْتَفْتَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبُ * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى * كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾^(٣)

(١) هذا السؤال للحباب بن المنذر بن الجموح، حينما أشار على النبي- صلى الله عليه وسلم- ببناء الحوض في غزوة بدر الكبرى، وأخذ النبي- صلى الله عليه وسلم- بزايه، قال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل ، أمتزلاً لئلا يتركه الله ، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة (انظر: البداية والنهاية، للحافظ ابن كثير ٨١/٥، نقلاً عن سيرة ابن هشام: ١/٦٢٠، وتاريخ الطبري: ٢/٤٤٠، حوالت السنة الثانية.

(٢) الأحزاب: ٢١.

(٣) عبس: ١-١٠.

ومن مثل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾^(١)

ومن مثل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَتَّخِذَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٢)

وغيرها من مواطن التصويب الإلهي للاجتهادات النبوية فيما لم يسبق فيه وحي ، وذلك حتى لا يتأسى الناس بهذه الاجتهادات المخالفة للأولى. فالعصمة للرسول ﷺ فيما يبلغ عن الله شرط لازم لتحقيق الصدق والثقة في البلاغ الإلهي ، وبدونها لا يكون هناك فارق بين الرسول وغيره من الحكماء والمصلحين ، ومن ثم لا يكون هناك فارق بين الوحي المعصوم والمعجز وبين الفلسفات والإبداعات البشرية التي يجوز عليها الخطأ والصواب.. فبدون العصمة تصبح الرسالة والوحي والبلاغ قول بشر ، بينما هي - بالعصمة - قول الله- سبحانه وتعالى - الذي بلغه وبينه المعصوم - عليه الصلاة والسلام -.. فعصمة المبلِّغ هي الشرط لعصمة البلاغ.. بل إنها - أيضاً - الشرط لنفي العبث وثبوت الحكمة لمن اصطفى الرسول وبعثه وأوحى إليه بهذا البلاغ".

وخلاصة القول- كما يقول الشيخ الزرقاني في مناهله:-^(٣)

أن في هذا المقام أموراً ثلاثة:-

أولها: أن خطأ الرسول لم يكن من جنس الأخطاء المعروفة، التي يتردى فيها كثير من ذوي النفوس الوضيعة، كمخالفة أمر من الأوامر الإلهية الصريحة، أو ارتكاب فعل من الأفعال القبيحة، إنما كان خطؤه - عليه الصلاة والسلام- في

(١) التحريم: ١-٣.

(٢) الأنفال: ٦٧-٦٨.

(٣) انظر مناهل العرفان ٢/٢٨٣، ٢٨٤.

أمور ليس لديه فيها نص صريح، فأعمل نظره، وأجال فكره، وبذل وسعه، ولكن على رغم ذلك كله أخطأ.

ثانيها: أن الله - تعالى - لم يقر رسوله على خطأ أبداً، لأنه لو أقره عليه، لكان إقراراً ضمنياً بمساواة الخطأ للصواب، والحق للباطل، ما دامت الأمة مأمورة من الله باتباع الرسول فيما يقول ويفعل، وكان في ذلك تلبيس على الناس، وتضليل لهم عن الحق الذي فرض الله عليهم اتباعه، وكان ذلك مدعاة إلى التشكك فيما يصدر عن الرسول، ضرورة أنه على هذا الفرض قد يجتهد ويخطئ، ولا يرشده الله إلى وجه الصواب فيما أخطأ، وهذه اللوازم كلها باطلة لا محالة، فيبطل ملزومها، وثبت أن الحكيم العليم لا يمكن أن يقر القدوة العظمى على خطأ أبداً، بل يبين له وجه الصواب، وقد يكون مع هذا البيان لون من ألوان العتاب لطيفاً أو عنيفاً، توجيهاً له وتكليماً، لا عقوبة وتثقيلاً.

ثالثها: أن الرسول كان يرجع الصواب الذي أرشده مولاه، دون أن يبدي غضاظة، ودون أن يكتف شيئا مما أوحى إليه من تسجيل الأخطاء عليه وتوجيه العتاب إليه، وفي ذلك، لا ريب أنصح دليل على عصمته وأمانته وعلى صدقه، في كل ما يبلغ عن ربه، وعلى أن القرآن ليس من تأليفه ووضع، ولكن تنزيل العزيز الرحيم.

المطلب الأول:

عتابه ﷺ على أخذ الفدية من أسرى بدر.^(١)

قال - تعالى - في سورة الأنفال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُنْفَخَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

(١) كان عدد الأسرى والقتلى، في هذه الغزوة سبعون، وتعرف بغزوة بدر الكبرى، وكانت في رمضان، من السنة الثانية للهجرة للمباركة.

سبب النزول:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا تَقُولُونَ فِي هَؤُلَاءِ الْأَسْرَى؟». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَوْمُكَ وَأَصْلُكَ اسْتَبَقَهُمْ وَاسْتَبْتَهُمْ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَنْتَوِبَ عَلَيْهِمْ. وَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَذَّبُوكَ وَأَخْرَجُوكَ قَدَمَهُمْ فَأَضْرَبُ أَعْنَاقَهُمْ. وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْتَ فِي وَادٍ كَثِيرٍ الْحَطَبِ فَأَضْرِبُ الْوَادِي عَلَيْهِمْ نَارًا ثُمَّ أَلْقِهِمْ فِيهِ قَالَ فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ شَيْئًا ثُمَّ قَامَ فَدَخَلَ فَقَالَ نَاسٌ يَأْخُذُ بِقَوْلِ أَبِي بَكْرٍ وَقَالَ نَاسٌ: يَأْخُذُ بِقَوْلِ عُمَرَ وَقَالَ نَاسٌ: يَأْخُذُ بِقَوْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَيُلَيِّنُ قُلُوبَ رِجَالٍ فِيهِ حَتَّى تَكُونَ أَلْيَنَ مِنَ اللَّيْنِ وَإِنَّ اللَّهَ لَيُشَدِّدُ قُلُوبَ رِجَالٍ فِيهِ حَتَّى تَكُونَ أَشَدَّ مِنَ الْحِجَارَةِ وَإِنَّ مَثَلَ يَا أَبَا بَكْرٍ كَمَثَلِ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: ﴿... فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١) وَإِنَّ مَثَلَ يَا أَبَا بَكْرٍ كَمَثَلِ عِيسَى قَالَ ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٢) وَإِنَّ مَثَلَ يَا عُمَرَ مَثَلُ مُوسَى قَالَ ﴿... رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾^(٣) وَإِنَّ مَثَلَ يَا عُمَرَ كَمَثَلِ نُوحٍ قَالَ ﴿... رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا﴾^(٤) أَنْتُمْ عَالَةٌ فَلَا يَنْفَلِتَنَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا بِفِدَاءٍ أَوْ ضَرْبَةٍ عُنُقٍ. فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا سُهَيْلَ ابْنَ بَيْضَاءَ فَإِنِّي سَمِعْتُهُ يَذْكُرُ الْإِسْلَامَ فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَمَا رَأَيْتَنِي فِي يَوْمٍ أَخُوفَ أَنْ تَقَعَ عَلَى حِجَارَةٍ مِنَ السَّمَاءِ مِنِّي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ حَتَّى قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِلَّا سُهَيْلَ ابْنَ بَيْضَاءَ». فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى) إِلَى آخِرِ الثَّلَاثِ آيَاتٍ.^(٥)

وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ اسْتَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ فِي الْأَسْرَى يَوْمَ بَدْرٍ فَقَالَ «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَمَكَّنَكُمْ مِنْهُمْ». قَالَ فَقَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ اضْرِبْ

(١) من الآية: ٣٦، من سورة إبراهيم - عليه السلام.

(٢) الآية: ١١٨، من سورة المائدة.

(٣) من الآية: ٨٨، من سورة نوح - عليه السلام.

(٤) من الآية: ٢٦، من سورة نوح - عليه السلام.

(٥) سنن البيهقي حديث رقم: ١٣٢٢٤، وانظر: لباب النقول ج: ١ ص: ١١٤.

أَعْتَقَهُمْ. قَالَ فَأَعْرَضَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ ثُمَّ عَادَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَمَنَكُمْ مِنْهُمْ وَإِنَّمَا هُمْ إِخْوَانُكُمْ بِالْأَمْسِ ». قَالَ فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ اضْرِبْ أَعْتَقَهُمْ. فَأَعْرَضَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ. قَالَ ثُمَّ عَادَ النَّبِيُّ ﷺ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ لِلنَّاسِ مِثْلَ ذَلِكَ فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ نَرَى أَنْ تَعْفُو عَنْهُمْ وَأَنْ تَقْبَلَ مِنْهُمْ الْفِدَاءَ. قَالَ فَذَهَبَ عَنْ وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا كَانَ فِيهِ مِنْ النِّعَمِ. قَالَ فَعَفَا عَنْهُمْ وَقَبِلَ مِنْهُمْ الْفِدَاءَ. قَالَ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَكُمْ فِي مَا أَخَذْتُمْ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ (١).

نقول: لما وقع هذا العدد كاسرى في أيدي المسلمين كان من الطبيعي أن يستشير النبي - صلى الله عليه وسلم - أصحابه في مصير هؤلاء، انطلاقاً من قول الله - تعالى: ﴿...وشاورهم في الأمر...﴾ (٢) ومن قوله تعالى - أيضاً: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْزُهُمْ شُرَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (٣). ولأن القرآن الكريم لم يكن قد نزل بعد ليبين له ﷺ ماذا يصنع بهؤلاء الأسرى؟ ومن هنا فقد استشار رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق (٤): "ثم عاتبه الله تعالى في الأسارى، وأخذ المغانم، ولم يكن أحد قبله من الأنبياء يأكل مغنماً من عدو له"

ومعنى الآيات:-

أن الله - عز وجل - يعاتب نبيه ﷺ هذا العتاب اللطيف بقوله: لا ينبغي لنبي أن يكون له أسرى من أعدائه، حتى يبالغ في القتل؛ لإدخال الرعب في قلوبهم ويوطد دعائم الدين، تريدون - يا معشر المسلمين - بأخذكم الفداء من أسرى "بدر" متاع الدنيا، والله يريد إظهار دينه الذي به تترك الآخرة. والله عزيز لا يقهر، حكيم في شرعه، لولا كتاب من الله سبق به القضاء والقدر بإباحة الغنيمة وفداء الأسرى لهذه الأمة، لناكح

(١) مسند الإمام أحمد حديث رقم: ١٣٩٠٤.

(٢) من الآية: من الآية: ١٥٩، من سورة آل عمران.

(٣) الآية: ٣٨، من سورة الشورى.

(٤) هو أبو بكر محمد بن إسحاق، ثبت في الحديث عند أكثر العلماء، وأما في المغازي والسير فلا تجهل إمامته فيها. أنظر: الروض الأنف للسيهلي، الجزء الأول.

عذاب عظيم بسبب أخذكم الغنيمة والفداء قبل أن ينزل بشأنهما تشريع، فكلوا من الغنائم وفداء الأسرى فهو حلال طيب، وحافظوا على أحكام دين الله وتشريعاته، إن الله غفور لعباده، رحيم بهم، وكانت الغنائم في الأمم السابقة لا تؤكل، كانت النار تنزل فتحرقها، أما في شريعة نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - فهي مباحة، وهي من خصائص هذه الأمة، ولذلك ورد في الحديث الصحيح، عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُعْطِيَتْ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي، نُصِرْتُ بِالرُّغْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا، وَإِنَّمَا رَجُلٌ مِنْ أُمَّتِي أُنزِلَتْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةَ» (١).

المطلب الثاني

عتابه ﷺ على الإذن الصادر منه للمنافقين.

قال - تعالى - في سورة التوبة: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعِينَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَافِرِينَ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾.

هذه الآية الكريمة: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ في صنف مبالغ في النفاق استأذنوا دون اعتذار، منهم: الجد بن قيس، ورفاعة بن التابوت، ومن اتبعهم، قال مجاهد: وذلك أن بعضهم قال: نستأذنه فإن أذن في القعود قعدنا وإلا قعدنا، وقدم له العفو قبل العتاب، إكراماً له - صلى الله عليه وسلم - وقالت فرقة: بل قوله سبحانه: ﴿عفا عنك﴾ استفتاح كلام، كما تقول: أصلحك الله وأعزك الله ولم يكن منه - عليه السلام - ذنب يعفى عنه، لأن صورة الاستنفار وقبول الأعداء مصروفة إلى اجتهاده (٢).

والاستفهام في: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم للإلنكار من الله - تعالى - على رسوله - صلى الله عليه وآله وسلم - حيث وقع منه الإذن لما استأذنه في القعود قبل أن يتبين

(١) صحيح الإمام البخاري، ك: الصلاة، حديث رقم: ٤٣٨.

(٢) تفسير الثعالبي ج: ٢ ص: ١٣٢، وانظر: تفسير أبي السعود ج: ٤ ص: ٦٩.

من هو صادق منهم في عذره الذي أبداه، ومن هو كاذب فيه ، وفي ذكر العفو عنه - صلى الله عليه وآله وسلم- ما يدل على أن هذا الإذن الصادر منه كان خلاف الأولى، وفي هذا عتاب لطيف من الله - سبحانه -

وقيل: إن هذا عتاب له- صلى الله عليه وآله وسلم- في إذنه للمنافقين بالخروج معه، لا في إذنه لهم بالعودة عن الخروج، والأول أولى،

وقد رخص له - سبحانه- في سورة النور بقوله: **(فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذِّنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ)** (١)

ويمكن أن يجمع بين الآيتين: بأن العتاب هنا متوجه إلى الإذن قبل الاستثبات، حتى يتبين الصادق من الكاذب، والإذن هناك متوجه إلى الإذن بعد الاستثبات، والله أعلم، وقيل: إن قوله: {عفا الله عنك} هي افتتاح كلام، كما تقول: أصلحك الله وأعزك ورحمك كيف فعلت كذا وكذا، وعلى هذا التأويل، يحسن الوقف على: **(عفا الله عنك)**

وعلى التأويل الأول ، لا يحسن، ولا يخفك أن التفسير الأول، هو المطابق لما يقتضيه اللفظ على حسب اللغة العربية ولا وجه لإخراجه عن معناه العربي. (٢)

ومعنى: **(عفا الله عنك لم أذنت لهم)** لأي سبب أذنت لهؤلاء الحالفين المتخلفين في التخلف حين استأذنوا فيه معتذرين بعدم الاستطاعة، وهذا العتاب يقول عنه العلامة الألويسي: "عتاب لطيف من اللطيف الخبير- سبحانه- لحبيبه- صلى الله تعالى عليه وسلم- على ترك الأولى، وهو التوقف عن الإذن إلى انجلاء الأمر وانكشاف الحال المشار إليه بقوله- سبحانه-: **(...حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا...)** أي فيما أخبروا به عند الاعتذار من عدم الاستطاعة". (٣)

وأخبره بالعفو قبل الذنب، لئلا يطير قلبه فرقا، وقيل المعنى: عفا الله عنك ما كان من ذنبك في أن أذنت لهم، فلا يحسن الوقف على قوله: **(عفا الله عنك)**

ثم قيل في الإذن قولان :-

الأول: لم أذنت لهم في الخروج معك، وفي خروجهم بلا عدة ونية صادقة فساد.

(١) من الآية: ٦٢، من سورة النور.

(٢) فتح القدير ج: ٢ ص: ٣٦٥.

(٣) روح المعاني ج: ١٠ ص: ١٠٧.

الثاني: لم أذنت لهم في القعود لما اعتلوا بأعدار.

قال: وهذا عتاب تल्प إذ قال: **(عفا الله عنك)** وكان- عليه السلام- أذن من غير وحي نزل فيه ، قال قتادة، وعمرو بن ميمون: ثنتان فعلهما النبي ﷺ ولم يؤمر بهما، إذنه لطائفة من المنافقين في التخلف عنه، ولم يكن له أن يمضي شيئا إلا بوحي، وأخذ من الأسارى الفدية، فعاتبه الله كما تسمعون. (١)

قال بعض العلماء: إنما بدر منه ترك الأولى، فقدم الله له العفو على الخطاب الذي هو في صورة العتاب. (٢) وجزى الله ابن الأنبا ري خيرا وأن تنزيهه سائر الأنبياء لواجب فكيف بسيد ولد آدم- صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين- قال أبو الفضل عياض في الشفا قوله تعالى: **(وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا)**. (٣)

قال بعض المتكلمين: عاتب الله - تعالى - نبينا عليه - السلام- قبل وقوع ما يوجب العتاب ، ليكون بذلك أشد انتهاء ومحافظة لشرائط المحبة، وهذه غاية العناية، ثم أنظر كيف بدأ بثباته وسلامته قبل ذكر ما عاتبه عليه وخيف أن يركن إليه وفي أثناء عتبه براءته وفي طي تخويفه تأمينه. قال عياض - رحمه الله- ويجب على المؤمن المجاهد نفسه الرائض بزمام الشريعة خلقه، أن يتأدب بأداب القرآن في قوله وفعله ومعاطاته ومحاوراته، فهو عنصر المعارف الحقيقية، وروضة الآداب الدينية والدينيوية، انتهى. (٤) قال سفيان بن عيينة (٥) "انظروا إلى هذا اللطف بدأ بالعفو قبل

(١) حصر العتاب في هذين الأمرين غير صحيح، فإن لهما ثالثا، وهو المذكور في سورة التحريم، وغير ذلك، كالمذكور في سورة عبس، وأجيب: بأنه يمكن تقييد الأمرين بما يتعلق بأمر الجهاد. انظر: روح المعاني: ١٠/١٠٩.

(٢) تفسير القرطبي ج: ٨ ص: ١٥٤ و١٥٥، والنسفي: ٩١/٢.

(٣) الآية: ٧٤، من سورة الإسراء.

(٤) تفسير الثعالبي ج: ٢ ص: ٣٥٣.

(٥) هو سفيان بن عيينة بن ميمون، أبو محمد الهلالي الكوفي، محدث الحرم، مولى محمد ابن مزاحم، أخي الضحاك ابن مزاحم، ولد سنة سبع ومائة، وطلب العلم في صغره، وتوفي في السنة الداخلة يوم السبت، أول يوم من رجب، سنة ثمان وتسعين ومائة، ودفن بالحجون، وكان ثقة ثباتا، كثير الحديث حجة، وتوفي وهو ابن إحدى وتسعين سنة. انظر ترجمته في: تذكرة الحفاظ: ١/٢٦٢ (ترجمة رقم: ٢٥٠)، والطبقات الكبرى لابن سعد (الطبعة الخامسة).

ذكر المغفور، ولقد أخطأ وأساء الأدب، وبئسما فعل فيما قال وكتب، من زعم أن الكلام كناية عن الجناية، وأن معناه أخطأت وبئسما فعلت، هب أنه كناية، ليس إيثارها على التصريح بالجناية للتلطيف في الخطاب، والتخفيف في العتاب، وهب أن العفو مستلزم للخطأ، فهل هو مستلزم لكونه من القبح وإستتباع اللائمة، بحيث يصحح هذه المرتبة من المشافهة بالسوء، أو يسوغ إنشاء الاستقباح بكلمة بئسما المنبئة عن بلوغ القبح إلى رتبة يتعجب منها؟ ولا يخفى أنه لم يكن في خروجهم مصلحة للدين أو منفعة للمسلمين، بل كان فيه فساد وخبال، حسبما نطق به قوله - عز وجل - : (لو خرجوا...) الخ وقد كرهه - سبحانه - كما يفصح عنه قوله تعالى: (ولكن كره الله إنبعائهم...) الآية.

نعم كان الأولى تأخير الإذن حتى يظهر كذبهم أثر ذي أثر ويفتضحوا على رعويس الأَشهاد ولا يتمكنوا من التمتع بالعيش على الأمن والدعة، ولا يتسنى لهم الابتهاج فيما بينهم، بأنهم غروه - صلى الله عليه وسلم - وأرضوه بالكاذيب على أنه لم يهنأ لهم عيش، ولا قررت لهم عين إذ لم يكونوا على أمن واطمئنان، بل كانوا على خوف من ظهور أمرهم وقد كان^(١).

ووجه العتاب على الإذن في قعودهم مع تقررره لا محالة، وتضمن خروجهم لهذه المفاصد، أنهم لو قعدوا بغير إذن منه ﷺ لظهر نفاقهم فيما بين المسلمين من أول الأمر، ولم يقدرُوا على مخالطتهم، والسعي فيما بينهم بالأراجيف ولم يتسنى لهم التمتع بالعيش، إلى أن يظهر حالهم بقوارع الآيات النازلة.^(٢)

واستدل بالآية أي بقوله تعالى: (عفا الله عنك لم أنتت لهم...) من زعم صدور الذنب منه ﷺ وذلك من وجهين :-

الأول : أن العفو يستدعي سابقة الذنب.

الثاني: أن الاستفهام الإنكاري بقوله سبحانه: (لم أنتت) يدل على أن ذلك الأذن كان معصية. والمحققون: على أنها خارجة مخرج العتاب كما علمت على ترك الأولى والأكمل.^(٣)

(١) تفسير أبي السعود ج: ٤ ص: ٦٩.

(٢) تفسير أبي السعود ج: ٤ ص: ٧١.

(٣) روح المعاني ج: ١٠ ص: ١٠٩.

ويستنبط من الآيات الكريمة فوق ما تقدم:-

١- جواز الاجتهاد للأنبياء - عليهم السلام - لأنه - عليه السلام - إنما فعل ذلك بالاجتهاد، و إنما عوتب مع أن له ذلك لتركه الأفضل، وهم يعاتبون على ترك الأفضل.

٢- وفيها - أيضا - دلالة على مشروعية الاحتراز عن العجلة، والاعتزاز بظواهر الأمور.^(١)

٣- فضل النبي - صلى الله عليه وسلم - على سائر الأنبياء - عليهم السلام - حيث لم يذكر مثله لسائر الأنبياء - عليهم السلام -.^(٢)

المطلب الثالث

عتابه ﷺ على تحريم ما أحل الله له.

قال - تعالى - في سورة التحريم:-

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تَحَرَّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَتَّغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ * إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةِ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مُسَلِّمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾. الآيات: ١-٥.

من السورة الكريمة. عنوان هذا المطلب قد يكون مدخلا وسندا للمشككين الذين يثيرون الشبهات ومن في قلوبهم مرض، من أن النبي - صلوات الله وسلامه عليه - يحرم أشياء أحلها الله له، وهي بالتالي تعتبر قدحا في عصمته.

والرد على الشبهة نقول: " اتهام الرسول بأنه يحرم ما أحل الله هو تصيد للعبارة وحمل لها على ما لم تردله..

(١) انظر: فتح القدير: ٢/٣٦٥، وتفسير النسفي: ٢/٩١.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ٢/٩١.

فمطلع الآية :

لم تحر ما أحل الله لك هو فقط من باب المشاكلة لما قال النبي ﷺ لنسائه
ترضية لهن والنداء القرأني ليس اتهاماً له ﷺ بتحريم ما أحل الله ولكنه من باب
العقاب له من ربه سبحانه الذي يعلم تبارك وتعالى أنه ﷺ يستحيل أن يحرم شيئاً أو
عملاً أحله الله ولكنه يشدد على نفسه لصالح مرضاة زوجاته من خلق العالوي الكريم.

ولقد شهد الله للرسول بتمام تبليغ الرسالة فقال:

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ
الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مَن أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾^(١)

وعليه: فالقول بأن محمداً - صلى الله عليه وسلم - يحرم ما أحل الله من المستحيلات
على مقام نبوته التي زكاها الله - تبارك وتعالى - وقد دفع عنه مثل ذلك بقوله: (وما
ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى)^(٢)

فمقولة بعضهم: "أنه يحرم" هو تحميل اللفظ على غير ما جاء فيه ، وما هو إلا وعد أو
عهد منه - صلى الله عليه وسلم - لبعض نسائه فهو بمثابة يمين له كفارته ولا صلة له
بتحريم ما أحل الله.^(٣)

ويقول العلامة الألويسي: "المراد بالتحريم: الامتناع، وبما أحل الله: العسل على ما صححه
النووي - رحمه الله تعالى - أو وطء سريته على ما في بعض الروايات، ووجه
التعبير بما على هذين التفسيرين ظاهر وفسر بعضهم (ما) بمارية، والتعبير عنها
بـ(ما) على ما هو الشائع في التعبير بها عن ملك اليمين، والنكتة فيه لا تخفى،

وأن الاستفهام ليس على الحقيقة، بل هو معاتبة على أن التحريم لم يكن عن باعث
مرضي فاتجه أن يسأل ما ينكر نمته وقد فعله غيري من الأنبياء - عليهم السلام - ألا
تري إلى قوله تعالى: ﴿... إِنْ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ...﴾^(٤)

(١) الحاقة: ٤٤ - ٤٧.

(٢) النجم: ٣ - ٤.

(٣) (انظر: حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، الحقيقة رقم: (٥٦)، ٢٠٠٠، صفحة ١٠٤، حاشية (١)).

(٤) من الآية: ٩٣، من سورة آل عمران.

(والله غفور رحيم) فيه تعظيم شأنه ﷺ بأن ترك الأولى بالنسبة إلى مقامه السامي
الكريم، يعد كالذنب وإن يكن في نفسه كذلك، وأن عتابه - صلى الله تعالى عليه وسلم -
ليس إلا لمزيد الاعتناء به، وقد زل الزمخشري^(١) هاهنا كعادته فزعم أن ما وقع من
تحريم الحلال المحظور لكنه غفر له - عليه الصلاة والسلام - ، وقد شن ابن المنير في
الإنصاف الغارة في الشنيع عليه فقال ما حاصله:

"إن ما أطلقه في حقه ﷺ تقول وافتراء والنبي - عليه الصلاة والسلام - منه براء وذلك
أن تحريم الحلال وقصارى ما يمكن أن يقال: يحتمل أن يكون النبي ﷺ قد شرب
عسلاً عند زينب كما هو عادته وجاء إلى حفصة فقالت له ما قالت فحرم العسل،
واتفق له - عليه الصلاة والسلام - قبيل ذلك أو بعينه، أو وطئ جاريتيه مارية في بيتها
في يومها على فراشها فوجدت فحرم ﷺ مارية وقال لحفصة ما قال تطيبيا لخاطرها
واستكتمها ذلك فكان منها ما كان، ونزلت الآية بعد القصتين، فاقترن بعض الرواة
على إحداهما، والبعض الآخر على نقل الأخرى، وقال كل، فأنزل الله تعالى: (يا أيها
النبي... الخ) وهو كلام صادق إذ ليس فيه دعوى كل حصر علة النزول فيما نقله فإن
صح هذا هان أمر الاختلاف وإلا فاطلب لك غيره والله تعالى أعلم.^(٢)

وقد روي أن عبد الله بن رواحة، وكان من النقباء^(٣)، كانت له جارية فاتهمته
زوجته ليلة. فقال قولاً بالتعريض^(٤)

(١) هو صاحب كتاب الكشاف في التفسير، وهو الإمام أبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد
الزمخشري، الخوارزمي النحوي اللغوي، المتكلم المفسر، يقب بجار الله، لأنه جاور بمكة
زماناً، ولد في شهر رجب سنة سبع وستين وأربعمائة بزمخشري تربية من قرى خوارزم، وتوفي
سنة ٥٣٨هـ. (انظر: طبقات المفسرين، للسيوطي: ١/١٢٠، وكشف الظنون: ١٣/١).

(٢) روح المعاني ج: ٢٨ ص: ١٤٧-١٥١.

(٣) النقباء: جمع نقيب، وهو كالعريف على القوم المقدم عليهم، الذي يتعرف أخبارهم وينقب عن
أحوالهم، أي يفتش، وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - قد جعل ليلة نعبه، كل واحد من الجماعة
الذين بايعوه بها نقيباً على قومه وجماعته، ليأخذوا عليهم الإسلام، ويعرفوهم شرائطه، وكانوا
اثني عشر نقيباً، كلهم من الأنصار. انظر: لسان العرب ج: ١ ص: ٧٦٩ و٧٧٠.(٤) التعريض: في الكلام ما يفهم به السامع مراده من غير تصريح، انظر كتاب التعريفات
للجرجاني: ١/٨٥.

فقالت: إن كنت لم تقربها فاقرا القرآن، فأنشد:-
شهدت فلم أكذب بأن محمدا
رسول الذي فوق السماوات من عل
وأن أبا يحيى ويحيى كلاهم
له عمل في دينه متقبَّل
وأن التي بالجزع من بطن نخلة
ومن دانها كل عن الخير معزَّل

وقال: (خيركم خيركم لنسائه)^(١)

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات الكريمات روايات منها: ما رواه الشيخان وغيرهما عن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - قالت: أن النبي ﷺ كَانَ يَمْكُثُ عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ ، وَيَشْرَبُ عِنْدَهَا عَسَلًا ، فَتَوَاصَيْتُ أَنَا وَحَفْصَةَ أَنَّ أَيْتَنَا دَخَلَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَلْتَقُلْ إِنِّي أَجِدُ مِنْكَ رِيحَ مَغَافِيرٍ ٢ ، أَكَلْتُ مَغَافِيرًا فَدَخَلَ عَلَيَّ إِحْدَاهُمَا فَقَالَتْ ذَلِكَ لَهُ . فَقَالَ « لَا بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ ، وَلَنْ أَعُودَ لَهُ » . فَزَلْتُ « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ... » ، « إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ » ، لِعَائِشَةَ وَحَفْصَةَ ، « وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَيَّ بَعْضَ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا » لِقَوْلِهِ « بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا » .^(٣) شربت عسلا عند حفصة.

وفي رواية^(٤): أن التي شرب عندها العسل هي حفصة بنت عمر - رضي الله عنهما - وأن القائلة له ذلك: سودة بنت زمعة ، وصفية بنت حيي.

قالوا: والاشتباه في الاسم لا يضر، بعد ثبوت أصل القصة.

(١) روح المعاني ج: ٢٨ ص: ١٥١ و ١٥٢.

والحديث في سنن ابن ماجه، ك: النكاح عن ابن عباس - رضي الله عنهما - بلفظ: خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي « حديث رقم: ٢٠٥٢

(٢) المَغَافِيرُ جمع مغفور ، وهو صمغ حلو كالناتف و له رائحة كريهة ينضحه شجر يقال له : المرفط (بضم العين المهملة والفاء) يكون بالحجاز (انظر : صحيح مسلم بشرح النووي ك: الطلاق، ب: وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق.

(٣) البخاري، ك: الأيمان والنذور: حديث رقم: واللفظ له ٦٦٩١، ومسلم، ك: الطلاق، حديث رقم ٣٧٥١، وسنن أبي داود، ك: الأشربة، حديث رقم: ٣٧١٦، وسنن النسائي، ك: الأيمان

والنذور، حديث رقم: ٣٨١١، ومسنند أحمد حديث رقم: ٢٦٦٠٣. وسنن أبي داود، ك: الأشربة، حديث رقم: ٣٧١٧.

(٤) سنن أبي داود، ك: الأشربة، حديث رقم: ٣٧١٧.

فقالت: إن كنت لم تقربها فاقرا القرآن، فأنشد:-
شهدت فلم أكذب بأن محمدا
رسول الذي فوق السماوات من عل
وأن أبا يحيى ويحيى كلاهم
له عمل في دينه متقبَّل
وأن التي بالجزع من بطن نخلة
ومن دانها كل عن الخير معزَّل

فقالت: زدني، فأنشد:-

وفينا رسول الله يتلو كتابه
كما لاح معروف من الصبح ساطع
أتى بالهدى بعد العمى فنفوسنا
به موقنات إن ما قال واققع
بييت يجافي جنبه عن فراشه
إذا رقدت بالكافرين المضاجع

فقالت: زدني، فأنشد:-

شهدت بأن وعد الله حقيق
وأن النار مثوى الكافرين
وأن محمدا يدعو بحقيق
وأن الله مولى المؤمنين
وأن العرش فوق الماء طاف
وفوق العرش رب العالمين
ويحمله ملائكة شداد
ملائكة الإله مسومين

وفي رواية: عَنْ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَتْ لَهُ أَمَةٌ يَطْوُهَا فَلَمْ تَزَلْ بِهِ حَفْصَةً حَتَّى جَعَلَهَا عَلَى نَفْسِهِ حَرَامًا فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْآيَةَ (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تَحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ» (١).

وروى ابن جرير عن زيد بن أسلم : أن رسول الله ﷺ أصاب أم إبراهيم مارية، في بيت بعض نسائه، وفي رواية في بيت حفصة فقالت: يا رسول الله في بيتي وعلى فراشي ؟ فجعلها، أي مارية عليه حراما، وحلف بهذا، فأنزل الله هذه الآيات (٢).

قال الإمام القرطبي بعد ذكر هذه الروايات: "وأصح هذه الأقوال أولها، والصحيح أن التحريم كان في العسل، وأنه شربه عند زينب، وتظاهرت عليه عائشة وحفصة فيه، فجرى ماجرى فحلف أن لا يشربه وأسر ذلك، ونزلت الآية في الجميع (٣) وكذلك رجح الإمام ابن كثير قول من قال أن التحريم كان في شرب العسل (٤).

وقال الإمام النووي في شرح مسلم: "الصحيح أن الآية في قصة العسل، لافسي قصة مارية المروية في غير الصحيحين، ولم تأت قصة مارية من طريق صحيح، والصواب: أن شرب العسل كان عند زينب بنت جحش... (٥).

فهذا هو ما حرمه على نفسه وهو حلال له: (لم تحرم ما أحل الله لك...؟)

واختلف العلماء هل مجرد التحريم يمين يوجب الكفارة أم لا؟

وفي ذلك خلاف، وليس في الآية ما يدل على أنه يمين، لأن الله - سبحانه - عاتبه على تحريم ما أحله له، ثم قال: (فَقَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحْلَةَ أَيْمَاتِكُمْ...) وقد ورد في القصة التي ذهب أكثر المفسرين إلى أنها هي سبب نزول الآية، أنه حرم أولا ثم حلف ثانيا (١).

(١) سنن البيهقي، ك: الخلع والطلاق، حديث رقم: ١٥٤٧٢.

(٢) جامع البيان: ١٥٥/٢٨.

(٣) القرطبي: ١٧/١٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم: ١٨٧/٨.

(٥) شرح صحيح الإمام مسلم:

(٦) فقه القدير: ٣١٠/٥.

يقول صاحب أحكام القرآن (١): "وأما قول من قال إنه حرم وحلف أيضا فإن ظاهر الآية لا يدل عليه، وإنما فيها التحريم فقط، فغير جائز أن يلحق بالآية ما ليس فيها، فوجب أن يكون التحريم يمينا لإيجاب الله - تعالى - فيها كفارة يمين بإطلاق لفظ التحريم" وهذا العتاب يقول عنه صاحب الظلال: (٢).

" هو عتاب مؤثر موح، فما يجوز أن يحرم المؤمن على نفسه ما أحله الله له من متاع، والرسول لم يكن حرم العسل أو مارية بمعنى التحريم الشرعي ؛ إنما كان قد قرر حرمان نفسه، فجاء هذا العتاب يوحي بأن ما جعله الله حلالا فلا يجوز حرمان النفس منه عمدا وقصدا إرضاء لأحد".

ما يستنبط من الآيات:-

- أن التحليل والتحريم، إنما هو لله - سبحانه - وتعالى - لا إلى غيره، ومعاتبته لنبيه - صلى الله عليه وسلم - في هذه السورة أبلغ دليل على ذلك (٣).
- أنه لا بأس بإسرار بعض الحديث إلى من يركن إليه من زوجة أو صديق وأنه يلزمه كتمه.
- يحسن حسن العشرة مع الزوجات والتلطف في العتب والإعراض عن استقصاء الذنب.

المطلب الرابع

عنايه ﷺ على إعراضه عن ابن أم مكتوم.

قال تعالى في سورة عيس:-

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّه يُزَكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَا مَنْ اسْتَفْتَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكَّى * وَأَمَا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْتَ تَلْهَى * كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ * فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ (٤).

(١) الجصاص: ٣٦٢/٥.

(٢) سيد قطب: ٣٦١٥.

(٣) انظر: فتح القدير للشوكاني: ٣١٠/٥.

(٤) الآيات ١-١٦، من السورة الكريمة.

تبدأ هذه السورة الكريمة بالإشارة إلى واقعة الصحابي الجليل عبد الله عمرو بن قيس المعروف باسم ابن أم مكتوم. (١)

في مكة المكرمة قبل الهجرة، وكان الرجل مكفوف البصر، ولكنه كان مفتوح البصيرة فبادر بقبول الإسلام ديناً، وجاء في يوم من الأيام إلي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يسأله في أمر من أمور الدين، والرسول منشغل في مناقشة عدد من زعماء قريش. (٢)

ودعوتهم إلي دين الله الخاتم، لعل الله (تعالى) أن ينصر بهم هذا الدين الذي كانوا يقفون منه موقف المعادة والصد، وفي هذه المعمة كان ابن أم مكتوم يلح في توجيه أسئلته، والرسول (صلى الله عليه وسلم) يتمني لو انتظر قليلاً حتى يتمكن من الوصول إلي قناعة مع هؤلاء نفر من رؤوس قريش، ولكن ابن أم مكتوم استمر في إلحاحه بالسؤال، فعبس وجه رسول الله ﷺ وتولي عنه فأنزل ربنا (تبارك وتعالى) وحيه بهذه السورة المباركة يعاتب فيها سيد المرسلين - صلى الله عليه وسلم - بهذا العتاب، وكان بعد نزول هذه الآيات يكرمه النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا جاءه ويبسط له رداءه، ويقول له: {مرحباً بمن عاتبني فيه ربي}.

فَعَنَ أُمَ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ أَنْزَلَ (عَبَسَ وَتَوَلَّى) فِي ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ الْأَعْمَى أَتَى رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَجَعَلَ يَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَشِدْنِي وَعِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَجُلٌ مِنْ عُظَمَاءِ الْمُشْرِكِينَ فَجَعَلَ

(١) اختلف في اسم ابن أم مكتوم، فقيل: عبد الله، وقيل: عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم، وهو الأكثر عند أهل الحديث، ابن أم مكتوم المؤذن، وأمه أم مكتوم، واسمها عاتكة بنت عبد الله بن عنكثة بن عامر بن مخزوم، وكان ممن قدم المدينة مع مصعب بن عمير قبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واستخلفه على المدينة ثلاث عشرة مرة في غزواته، وشهد ابن أم مكتوم فتح القادسية، وكان معه اللواء يومئذ، وقتل شهيداً بالقادسية. انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ترجمة رقم: (١٧٥٣).

(٢) هم: عتبة وشيبة، ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وأممية بن خلف والوليد بن المغيرة. (انظر: المصدر السابق، ونفس الجزء والصفحة).

رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُعْرِضُ عَنْهُ وَيَقْبَلُ عَلَى الْآخِرِ وَيَقُولُ أَرَى بِمَا أَقُولُ بَأْسًا فَيَقَالَ لَا. (١)

والتعرض لعنوان عماء: - (٢)

١- إما لتمهيد عذره في الإقدام على قطع كلامه - عليه الصلاة والسلام - بالقوم والإيذان باستحقاقه بالرفق والرافة.

٢- وما لزيادة الإنكار، كأنه قيل: تولى لكونه أعمى كما أن الالتفات في قوله تعالى: {وما يدريك} لذلك، فإن المشافهة أدخل في تشديد العتاب، أي وأي شيء يجعلك دارياً بحاله حتى تعرض عنه؟

فإن قيل: أن ابن أم مكتوم قد استحق التأديب والجزر، لأنه وإن كان لا يرى القوم لكنه لشدة سمعه كان يسمع مخاطبة الرسول - صلى الله عليه وسلم - معهم ويعرف بذلك شدة اهتمامه بشأنهم فيكون إقدامه على قطع كلام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إيذاء له، وهو معصية، وأيضاً: الأهم مقدم على المهم، لأن إسلامهم سبب لإسلام جمع عظيم، فكان الاشتغال بهم وتقدير الدلائل لهم أهم، فكيف عاتب الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - على التولي عنه؟

أجيب (٣): بأن ما فعله يوهم ظاهره تقديم الأغنياء على الفقراء، وقلة المبالاة بانكسار قلوب الفقراء، وليس ذكره بلفظ الأعمى مقتضياً لتحقيره، بل لبيان عذره في الإقدام على قطع كلام رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، والدلالة على أنه أحق بالرافة والرفق.

ويقول العلامة الآلوسي (٤): "والتعبير عن ابن أم مكتوم بالأعمى، للإشعار بعذره في الإقدام على قطع كلام الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتشاغله بالقوم، وقيل: إن الغيبة أولاً والخطاب ثانياً لزيادة الإنكار، وذلك كمن يشكو إلى الناس

(١) رواه الإمام الترمذي في سننه: تفسير القرآن، حديث رقم ٣٦٥١ وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، ولباب النقول: ١/ ٢٢٧.

(٢) تفسير أبي السعود: ٩/ ١٠٧.

(٣) انظر: الجمل على الجلابين: ٤/ ٤٨٧ نقلاً عن زيادة على البيضاوي.

(٤) روح المعاني: ٣٠/ ٣٩ و٤٠.

جانبا جني عليه ثم يقبل على الجاني إذا حمى على الشكاية مواجهها بالتوبيخ والإلزام الحجة، وفي ذكر الأعمى نحو من ذلك لأنه وصف يناسب الإقبال عليه والتعطف، وفيه أيضا: دفع إيهام الاختصاص بالأعمى المعين، وإيماء إلى أن كل ضعيف يستحق الإقبال من مثله على أسلوب لا يقضي القاضي وهو غضبان^(١).

وكلمة (لعل) مع تحقق التزكي واردة على سنن الكبرياء، أو على اعتبار معنى الترجي بالنسبة إليه- عليه الصلاة والسلام- للتمييز على أن الإعراض عنه عند كونه مرجو التزكي مما لا يجوز، فكيف إذا كان مقطوعا بالتزكي، كما في قولك: لعلك ستندم على ما فعلت، وفيه إشارة إلى أن من تصدى لتزكيهم من الكفرة، لا يرجى منهم التزكي والتذكر أصلا^(٢).

وقدم التذكي على التذكر، لتقدم النخلية على التحلية، وخص بعضهم بما إذا كان ما يتعلمه من النوافل، والأول بما إذا كان سوى ذلك^(٣).

وفي الآية الكريمة، تعريض وإشعار، بأن من تصدى لتزكيهم وتذكيرهم من الكفرة، لا يرجى منهم التذكي أصلا، فهي كقولك لمن يقرر مسألة لمن لا يفهمها وعنده آخر قابل لفهمها: لعل هذا يفهم ما تقرر، فإنه يشعر بأنه قصد تفهيم غيره وليس بأهل لما قصده.

(١) تفسير أبي السعود: ١٠٧ / ٩. (٢) روح المعاني ج: ٣٠ ص: ٤٠. (٣) تفسير أبي السعود: ١٠٧ / ٩. (٤) روح المعاني ج: ٣٠ ص: ٤٠.

ومن الدروس المستفادة من هذه الواقعة:-^(١)

- ١- ألا يخص بالدعوة إلي دين الله أحد دون أحد، فإنه (تعالى) وحده هو الذي يعلم أين يكمن الخير؟
- ٢- والدعوة إلي دين الله الخاتم يجب أن تكون للناس كافة بغض النظر عن أعرافهم، وأنسابهم، وأجناسهم، وأعمارهم، وإمكاناتهم العلمية والتقنية والمادية، ومستوياتهم الاجتماعية، وغير ذلك من الفوارق الطبقيّة التي لا يقرها الإسلام ولا يرضاها ربنا (تبارك وتعالى) أساسا للتفضيل بين خلقه.

ولقد كان في إعلان رسول الله (صلي الله عليه وسلم) لهذا العتاب الإلهي الشديد لشخصه الكريم أبلغ الشهادات علي صدق نبوته، ونبل رسالته، وكمال عبوديته لله الخالق، فلا يقوي علي إبراز مثل هذا العتاب إلا نبي كريم، يعرف حقوق ربه عليه، وقدسوة الوحي الذي ينتزل إليه بكلمات الله التامات المنزهة عن الحذف أو الإضافة، أو غير ذلك من المداخلات البشرية، كذلك كان في إعلان هذا القرار الإلهي في وجه زعامات قريش، والمسلمون في مكة المكرمة ثلة مستضعفة في وسط بيئة جاهلية، تقطنها العصبية العرقية العمياء، وتحكمها الأعراف الظالمة الجائرة، كان في ذلك أعظم الشهادات علي أن هذا النبي والرسول الخاتم (صلي الله عليه وسلم) كان موصولا بالوحي. ومعلما من قبل خالق السماوات ومؤيدا بتأييده الذي لا يضام!!

وبالحديث عن هذا المطلب، أكون قد وصلت- بعون الله وتوفيقه- إلى ختام ما قصدت البحث فيه، أسأل الله - عز وجل- أن أكون قد وفقت في هذه الدراسة المتواضعة، وأعلم أنني مهما حاولت فلن أصل إلى الكمال، فالكمال المطلق لله -عز وجل- وغاية الأمر أنني حاولت واجتهدت قدر استطاعتي، فإن كنت قد وفقت، فمرجع ذلك لله- سبحانه وتعالى- صاحب النعم والمنن: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ...﴾^(٢) ،

(١) أنظر: الإعجاز العلمي في القرآن الكريم/ موقع على الشبكة العالمية الإنترنت <http://www.oa.net/> وجريدة الأهرام المصرية الصادرة في: ٤/١٠/٢٠٠٤م تحت عنوان: من أسرار القرآن، وهو مقال للأستاذ الدكتور/ زغول النجار).
(٢) من الآية: ٥٣، من سورة النحل.

وإن كنت قد قصرت، فمني ومن الشيطان: ﴿...رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَاتَّصِرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (١).

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين،،،

دكتور/ عوض محمد يوسف أبو عليان

أهم مراجع البحث

- القرآن الكريم/ كتاب الله- عز وجل- الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.
- أحكام القرآن/ الجصاص/ دار إحياء التراث العربي/ بيروت/ ٤٠٥ تحقيق/ محمد الصادق قمحاوي.
- الأعلام، للزركلي.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب/ ابن عبد البر القرطبي/ دار الكتب العلمية/ ١٩٤٨.
- بدائع الفوائد، لابن القيم، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة ١٤١٦/ ١٩٩٦ الطبعة الأولى.
- البداية والنهاية، للحافظ ابن كثير/ تحقيق الدكتور/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
- البرهان في علوم القرآن الزركشي / دار المعرفة/ بيروت/ ١٣٩١ تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم.
- التعريفات/ الجر جاني/ دار الكتاب العربي/ بيروت.
- تفسير البيضاوي/ البيضاوي دار الفكر/ بيروت/ ١٤١٦ - ١٩٩٦ تحقيق عبد القادر عرفات العشا حسونة.
- تفسير الجلالين / دار الحديث/ القاهرة/ الطبعة الأولى.
- تفسير القرآن العظيم/ ابن كثير الدمشقي / دار الفكر/ بيروت/ ١٤٠١هـ.
- تفسير النسفي/ تأليف الإمام الجليل، العلامة أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي (بدون).
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن/ ابن جرير الطبري/ دار الفكر بيروت/ ١٤٠٥.
- الجامع لأحكام القرآن/ القرطبي / دار الشعب/ القاهرة.

(١) من الآية الأخيرة، من سورة البقرة.

- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل / الزمخشري/ دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م. تحقيق/ محمد عبد السلام شاهين.
 - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون/ مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي
 - مصطفى بن عبدالله القسطنطيني الرومي الحنفي/ دار الكتب العلمية/ بيروت ١٤١٣/١٩٩٢.
 - لباب النقول في أسباب النزول/السيوطي دار إحياء العلوم/ بيروت.
 - لب الألباب في تحرير الأنساب/ الجلال السيوطي/ دار الكتب العلمية.
 - لسان العرب/ ابن منظور/ دار صادر/ بيروت.
 - مختار الصحاح / الرازي / مكتبة لبنان بيروت ١٤١٥ - ١٩٩٥ تحقيق محمود خاطر.
 - معالم التنزيل/البغوي دار المعرفة/ بيروت ١٤٠٧ - ١٩٨٧.
 - مناهل العرفان في علوم القرآن/ محمد عبدا لعظيم الزرقاني/ دار الفكر/ بيروت/ ١٩٩٦ الطبعة الأولى.
- مراجع على جهاز الحاسوب:-**
- موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة عنوان الموقع: www.50a.net
 - حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين/ وزارة الأوقاف/ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.
 - موسوعة الحديث الشريف، وتشتمل على:- صحيح البخاري، صحيح مسلم، سنن أبي داود، سنن الترمذي، سنن النسائي، سنن ابن ماجه، موطأ مالك، مسند الإمام أحمد، سنن الدار مي، سنن الدار قطني، سنن الحميدي، سنن البيهقي.
 - بالإضافة إلى مراجع أخرى مذكورة في ثنايا البحث.

- جريدة الأهرام المصرية الصادرة في: ٤/١٠/٢٠٠٤م.
- الجواهر الحسان في تفسير القرآن/ عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي/ مؤسسة الأعلمي للطبوعات/ بيروت.
- الدر المنثور/ جلال الدين السيوطي دار الفكر/ بيروت ١٩٩٣م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود الألويسي / دار إحياء التراث العربي/ ١٤٠٤ الطبعة الثالثة.
- الروض الأنف للسهيلي. (بدون).
- زاد المسير في علم التفسير/ ابن الجوزي/ المكتب الإسلامي/ بيروت ١٤٠٤ الطبعة الثالثة.
- الصحاح / الجوهري/ المركز العربي للثقافة والعلوم.
- صحيح الإمام البخاري/ دار إحياء التراث العربي.
- صحيح الإمام مسلم بشرح النووي/ دار الفكر ١٤٠١ هجريه/ ١٩٨١م. الطبعة الأولى.
- الطبقات الكبرى، لابن سعد (بدون).
- طبقات المفسرين/ أحمد بن محمد الأندروي/ مكتبة العلوم والحكم/ المدينة المنورة/ ١٩٩٧م. الطبعة الأولى/ تحقيق/ سليمان بن صالح الخزي.
- طبقات المفسرين/ عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي/ مكتبة وهبة/ القاهرة/ ١٣٩٦ الطبعة الأولى/ تحقيق/ علي محمد عمر.
- العجائب في بيان الأسباب/ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي.
- العين/ الخليل بن أحمد الفراهيدي / دار الكتب العلمية.
- فتح القدير/ الشوكاني/ دار الفكر/ بيروت.
- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية: تأليف سليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمل/ دار الفكر.
- في ظلال القرآن الكريم/ دار الشروق.
- القاموس المحيط/ الفيروز آبادي مؤسسة الرسالة ١٩٩٣م.